سامي لطيف*

العالم ليس جمعية خيرية والغرب ليس بابانويل:
الفرصة الاخيرة امام النظام الرسمي العربي

■ سأل مايكل جيرسون، كاتب خطابات بوش خلال ولايته الاولى «هنري كيسنجر» عن سبب تاييده للحرب على العراق، فاجاب لان افغانستان لم تكن تكفي في الصراع مع الاسلام، وهم يريدون اذلالنا ونحتاج الى اذلالهم.

احتلت امريكا العراق وحاولت بشتى الوسائل اذلال العراقيين والعرب والمسلمين من خلال الاحتلال.

ـ ارست الفوضى الامنية التي تمثلت في شهور طويلة من عمليات النهب والسلب مارستها الميليشيات امام العدسات.

ـ داهمت البيوت واعتدت على الرجال امام الزوجات والاطفال، ونقلت ذلك ايضا على الهواء مباشرة، ودنست حرمة المساجد وقتلت المعتكفين داخلها بالرصاص.

ـ صورت وبثت عمليات التعذيب الجنسي، والتقتيل وصلب المعتقلين احياء في سجن ابو غريب وسائر المعتقلات.

ـ اهانت وقتلت رجال الدين وطاردت على الطرقات كل من قال كلمة رفض للاحتلال وزبانية الاحتلال.

وعندما انفجر بركان الغضب وبدا رد المقاومة العراقية الباسلة، لم تجد امريكا وعملاؤها سوى الارهاب تهمة تصم به المقاتلين دفاعا عن امتهم وعقيدتهم وشعبهم وحرماتهم...

وبعد ثلاث سنوات من الغزو وجدت امريكا نفسها في المأزق الذي اوقعت نفسها فيه: حرب استنـــزاف هائلة حصرت الوجود الآمن للامريكان في منطقة اسموها الخضراء لا تتجاوز مساحـــتها في بغداد اربعة اميال مربعة، وكما قال الصحافي الامريكي بوب وودوارد، مصنفاً: «لقد دخلنا مرحلة ما بعد الحرب، في الحرب فقدت امريكا 140 امريكيا، وبعد الحرب وحتى الآن اكثر من 3000، ان ما يحدث في العراق الآن شيء بلا اسم.. بلا مضمون.. بلا خطة شيء ليس حرباً». بالنسبة للشعب الامريكي فان حرب العراق قد دخلت فصلها الثالث والاخير، هو فصل: كيف نخرج من العراق؟

احد كوميديانات امريكا علّق صبيحة اعلان نتائج الانتخابات النصفـية في الكونغرس عن رأيه الذي بات يمثل الآن رأي ثلثي الامريكيين «مفارقة عجيبة، ذهبت امريكا الى العراق لتغير نظامه.. لكن اليوم العراق غيّر نظام الولايات المتحدة»!

فالذين جاؤوا الى العراق بهدف اذلال العرب والاسلام والمسلمين، انتهوا الى ما انتهى اليه نيكولاس كريستوف المحلل بصحيفة «نيويورك تايمز»: «انه امر يثير الشفقة ان نكون قادرين على الوصول الى القمر بسلام، لكننا لا نستطيع ان نذهب الى الانبار بالطريقة نفسها»..! قبل ان يستطرد..: «نحن اسوأ الاعداء لانفسنا من ديمقراطيين (حرب فيتنام) وجمهوريين (حرب العراق)».

انه الفشل الامريكي الكبير، وتلك عبارة شديدة التلطيف، يمكن تسميته بلا مواربة بالهزيمة الامريكية الكاملة في العراق على مستوى الاهداف الاستراتيجية او على مستوى التكتيكات المرحلية.

انه الفشل الذي يكابر بوش ولا يريد الاعتراف به لاسباب حزبية انتخابية اساساً، لان اقراره بالفشل وشروعه في تقليص قواته في العراق تمهيدا لانسحابها يعني عملياً وواقعياً.

اولا: حسم معركة الانتخابات الرئاسية والنيابية عام 2008 لصالح الحزب الديمقراطي، وثانيا ربما نصب المحاكمات له ولرموز نظامه، تشيني ورامسفيلد وهادلي وسواهم باعتبارهم هم الذين يتحملون المسؤولية التاريخـية والمباشرة للكارثة التي حلت بامريكا في العراق.

لهذا اخترع بوش ما اسماه استراتيجيته الجديدة في العراق، والتي اراد فيها ممارسة الهروب الى الامام بحشد المزيد من القوات لارسالها الى الأتون، وتعميق التورط الامريكي في الوحل العراقي، فيما تبقى من وقت لانتهاء ولايته، بحيث يتخذ الرئيس الديمقراطي القادم قرار الانسحاب فيتحمل ذلك الرئيس مسؤولية الهزيمة والخروج المذل بدلا من ان يتحمله الجمهوريون الذين سينقلبون الى موقع المعارضة عندما يحين الوقت.

فاستراتيجية بوش التصعيدية الجديدة هي على المقلب الامريكي نوع من الهـروب لا يحظى بدعم معظم الامـريكيين، وان كـان ـ ويا للمفارقة قد حظي بدعم النظام الرسمي العربي الذي انبرى منافحاً عن خطة بوش، ومتبنياً لها من القاهرة الى الرياض دون خجل، هذه المفارقة تسوقنا الى التساؤل المشروع: اذا كان الامريكان يشعرون بانهم هم اعداء انفسهم، فكيف لا يشعر النظام الرسمي العربي حتى الآن بانه عدو نفسه؟

واذا كانت امريكا نفسها تشعر بمأزقها وتراجع نفسها وتبذل خططها وتضغط على ادارتها لتغيير ومراجعة استراتيجيتها، فكيف لا يشعر النظام الرسمي العربي حتى الساعة بمأزقه ويراجع نفسه وكيف لا يبدل خططه ويراجع سياساته، اذ لا يملك ولم يمتلك يوما اية استراتيجية حقيقية؟

لقد فعلها اللاتينيون لما ادركوا ان الارتهان لواشنطن والارتماء في احضانها لم يورثهم سوى الفقر والبطالة والقهر والعذاب، الذي لم يفارقهم منذ عشرات السنين، فخرج المارد الامريكي اللاتيني البوليفاري من قمقمه والتحق شافيز بكاسترو والتحق مورالیس بشافيز، وانتصر الساندانيون وتغيرت شيلي والاكوادور وكولومبيا وبوليفيا والتغيير مستمر، ولم تعد معاقل اليمين الموالية في الاوروغواي وباراغواي بمنأى عن التغيير، واضطرت ـ كما ظهر في اجتماع دول المجموعة الاقتصادية لامريكا اللاتينية ـ الميركور ـ الاخير الى ان ترفع رأسها مع الرافعين رؤوسهم في البرازيل في كبرياء لم يعرفوها من قبل.

بل لقد فعلها الافارقة، عندما اصطفوا وراء الجماهيرية كاسرين الحصار ـ الجوي الذي فرضته القوى الامبريالية عليها لعقد من الزمن، ثم ها هم قد انبروا للدفاع عن زيمبابوي والسودان والامن القومي الافريقي ضد التدخل الامريكي الاوروبي، هو احساس آخر بالكبرياء يلف القارة السمراء.

بل ان الكبرياء القومي للكوريين حفز الجنوبيين رغم كل التناقضات السياسية والعقائدية الى رفض التهديدات الامريكية اليابانية لبيونغ يانغ، رفضت سيول وترفض اي غزو امريكي للشمال في شبه الجزيرة الكورية..

في العالم هذا الف مثال ومثال على شعوب حيّة رفضت الاذلال الذي يحلم به كيسنجر وبوش لها، وعبرت سياسات انظمتها وحكوماتها عن ذلك الرفض بدرجة او بأخرى..

اما النظام الرسمي العربي فهو:

ـ غائب عن الاستراتيجية.

ـ غارق في التبعية.

ـ غافل عن الغرق.

في امريكا وفي اوروبا وفي امريكا اللاتينية وحتى في كوريا هناك من يراجع وليس لدينا في الوطن العربي الكبير من يراجع..

في امريكا ثمة من يدرك ان هذه لحظة مناسبة للتوقف ومحاسبة الذات وتفقد الاخطاء واستنباط الحلول..

بل وفي كيان العدو الصهيوني من يفعل ذلك اولاً بأول ضماناً للحفاظ على تفوق الكيان الغاصب واستمرار ظلمه وتجبره..

الا عندنا نحن العرب، ليس ثمة خطة ولا اعتراف بالخطأ ولا تراجع عن السياسات التي اوصلتنا الى الهزائم والممارسات التي ادت الى الفشل الذريع المخيم على السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة والجيش بل والفن والرياضة ايضا!

وقد يكون التوصيف الذي سردناه هو ايسر ما في الآمر، وانما التوصل الى مبادئ الحل ومنطلقات الخروج مما نحن فيه هو الجزء الصعب حقاً..

ولعل المنطلق الحقيقي للتغيير لا يبدأ الا عبر الاعتراف المباشر للنظام الرسمي العربي لنفسه ولنا وللعالم بفشله الذريع..

فاذا كان النظام الرسمي العربي لا يعرف انه فاشل فتلك مصيبة، اما اذا كان لا يعرف او لا يريد ان يعترف بالطريقة ذاتها التي اعترف بها بوش فالمصيبة اعظم بكثير..

على النظام ان يعترف بفشله لتكون الخطوة التالية هي الرغبة الصادقة في الانقاذ والخروج من المأزق كافة، واول ذلك الخروج استدعاء نوع من الاحترام والنفاذ للمواثيق والمعاهدات والاتفاقيات التي ابرمتها المنظومة الرسمية لذلك النظام اي جامعة الدول العربية، وتفعيلها وتطبيقها دون اي اعتبار لمؤثرات خارجية من اية جهة اقليمية او دولية كانت.

على النظام العربي ان يفعّل معاهدة الدفاع العربي المشترك ومجلس الوحدة الاقتصادية العربية، وان يدفع مؤسسة القمة الدورية للتصدي للمخاطر الاستراتيجية التي تتهدد الامة.

وبدلا من الاستجابة لمطالب حصار مالي على المقاومين في كل من فلسطين والعراق، على النظام ان يوجد آلية لدعمهم عسكرياً ومالياً.

وبدلا من الرضوخ لطلبات تغيير المناهج التعليمية والثقافية والدينية على النظام ان يستنبط مناهج جديدة احيائية استنهاضية توحيدية.

وبدلا من خطط امنية جزئية فاشلة تتذرع بالاقليم وتتلطى خلف الاسوار ووراء الحدود، على النظام اقرار خطة للأمن القومي العربي تتضمن:

ـ الوحدة الداخلية لكل كيان قطري.

ـ الوحدة القومية بشكل ما لكيان عربي متكامل.

ـ اسلوب التعامل والتعاون مع دول الجوار.

ـ منهج التعامل مع الفضاءات والكيانات الدولية الكبرى في هذا العالم.

البديل لذلك ببساطة ووضوح هو الفشل الراهن ومزيد من الانحدار والفشل والهزيمة والتخبط في المستقبل الذي قد بدا فعلا منذ الامس غير القريب!

على النظام العربي ان يغير بدلا من ان يتغير اذا كان لهذا النظام فضلة من احساس بالخطر على وجوده، او ادراك لحجم المأزق او معرفة بأهمية الزمن او تبصر بعواقب التخلف او فهم لما يحدث فيه ومن حوله..

لن يجدي النظام نفعا بعد الآن افتعال المشاكل على الطريقة القديمة، تارة مشاكل مع القوميين وتارة مع الاسلاميين وتارة مع التقدميين وتارة مع الليبراليين الوطنيين، تلك المشاكل مع التيارات الرئيسية ومع النخب المجتمعية الرئيسية والقيادات الفكرية والثقافية، واصطناع الصدام بغرض التلهي بمعارك داخلية تحرف اهتمام الجماهير والشارع عن القضايا الرئيسية، تكتيك كان ينفع لشهر او شهرين، ثم اصبح ينفع لاسبوع او اسبوعين، ثم هو اليوم لاينفع لساعة او ساعتين في زمن البث المباشر لما يحدث في فلسطين والعراق ولبنان والصومال وموريتانيا وكوريا!

النظام العربي لم يعد بوسعه الضحك على الذقون بالسهولة التي كانت تلك العملية تجري بها قبل ذلك، فالجماهير تعيش الحدث لحظة بلحظة وموقفها يتخذ في اللحظة التالية للحدث من اول مخاطر انفلونزا الطيور والى جريمة اختفاء معارض ما..

وما يخدم النظام العربي في سعيه لتجاوز مأزقه والخروج من فشله هو المصالحة مع الذات، مع الشارع، بعد ان اصبح الشارع في الشارع، كما نراه في فلسطين والعراق ولبنان وفي غير مكان.. والنظام العربي الذي يريد ان ينقذ نفسه من مشنقة كتلك التي لفها الامريكان على رقبة الشهيد صدام حسين، عليه ان يحتمي بهذا الشارع من تلك المشنقة، اذ ليس يحميه من مصير صدام سوى الناس اذا اقتنعوا...!

اما الاذعان لخطة بوش واستراتيجية امريكا فانها لن تحمي راس النظام العربي، لم تحمه في السابق ولن تحميه لاحقاً.

بل ان امريكا التي تستعمل راس اي نظام هي اول من سيضحي به ويسقطه عندما تنتهي فائدته او تتغير مصالحها تجاهه..

على النظام العربي الذي استقوى بامريكا ضد اقوى واهم محاولة عربية للنهوض في العصر الحديث مع عبد الناصر، ان يسأل نفسه كيف قتل السادات وميزانية حمايته في (سي آي ايه) هي 25 مليون دولار سنوياً.

على النظام الرسمي العربي الذي استقوى بامريكا ضد الشهيد صدام حسين ان يسأل نفسه كيف كانت علاقات امريكا الودية بصدام حسين ابان الحرب العراقية ـ الايرانية، وكم مرة جاءه رامسفيلد وكم مرة حملت ابريل غلاسبي اليه تحيات البيت الابيض..

اذا كانت امريكا تستغفلكم ايها السادة، فقولوا لها انها قد تفعل بعض الوقت ولكن ليس بامكانها ان تفعل كل الوقت..

والنظام العربي ما لم يبادر الى ان يتغير فسيتم تغييره، هذه سُنة الله في الكون وسُنة الشعوب والامم في الزمن، وسُنة الجماهير في الشارع، والذي يستهين بتلك السنن يدفع الثمن غالياً من فرعون الى بوش.

والنظام العربي ما لم يبادر الى الخروج من مأزقه بنفسه، فان القوى الحية من قوميين واسلاميين، من مسلمين ومسيحيين من تقدميين وليبراليين وطنيين، من شباب غاضب في الجامعات والمعامل والمزارع والورش، من شهداء احياء يتمنون حياة اخرى في حواصل الطير الخضر في الجنة، هذه القوى الحية في كل مكان من ارض العرب والاسلام لم تعد تطيق ذلاً او ترضى خنوعا او تقيم وزنا لمسلمات النظام ومقدساته وبديهياته، بعد ان باتت العواصم لا تتقن سوى السقوط من القدس الى بغداد الى بيروت الى مقديشو، وبعد مشهد الشنق الذي بثه الامريكيون وصنائعهم تشفياً بالشهيد صدام حسين ومواصلة لنهج الإذلال ذاته الذي تحدث عنه كيسنجر كما ذكرنا في مستهل المقال..

النظام العربي سيجد نفسه في العاجل لا الآجل ازاء قوى جهادية قومية وحدوية اسلامية، تمثلت روح الأمة وعرفت كيف تنسج استراتيجية بديلة للمآزق الراهنة بعد ان تقاعس النظام عن ايجاد تلك الاستراتيجية..

هذه القوى التي تبلور الآن خططها للتقدم لملء الفراغ الناشئ عن الاداء الحكومي العربي، وتحشد قواها وتعبئ شبابها قد يكون بمقدورها اليوم التوصل الى اتفاق مع الحكومات العربية للتنسيق وتنظيم الادوار، ولكن ذلك لن يكون ممكنا غداً اذا ما انطلق المد الشعبي وبدأ الهدير الجماهيري، فالفرصة الاخيرة امام النظام الرسمي العربي هي فقط الآن!

اما اذا واظب ذاك النظام على الرهان على الادارة الامريكية فقد حكم على نفسه بنفسه..

ولو كان العراق قد استكان تحت الاحتلال، ولو لم توجد فيه مقاومة فان امريكا ذاتها كانت وفقا لنظرية الدومينو التي تعشقها ربما كانت تتحدث الآن عن كم دولة ينبغي ان ترث آل سعود، او ربما كان الحديث ليكون عن حق الاقباط في دولة مطلة على البحر الاحمر، وهناك شواهد من كلام الطاقم السياسي الامريكي الحاكم على ذلك المنطق في دراسات وتصريحات ومقالات ومقابلات مذاعة بل وخطب مباشرة قبيل وبعد الحرب على العراق..

لذلك فان السذاجة وحـــدها هي ما يمكنها وصف الذين يصدقون كلام بوش اليوم عن الحـــاجة الى دعم المعتدلين العرب في المنطقة.. آن الاوان كي يبلغ هذا النظام العربي الرشد، ويميز ويدقق ويستوعب... ويراجع... فالعالم ليس جمعية خيرية، والغرب ليس بابا نويل وامريكا ليست مائدة رحمة وبوش ليس النجاشي، هذا عالم الاقوياء وخيار البقاء الوحيد امام النظام الرسمي العربي هو الوحدة..

على الرؤوس الحاكمة اليوم ان تستوحي امريكا في مراجعتها لاستراتيجيتها وتضع خطة لملء الفراغ قبل ان يتقدم الشارع لفعل ذلك، اما اذا كانوا يصرون على مراوحتهم الراهنة، فان عليهم ان يستوحوا الكيان الصهيوني، اذ لا يعقل ان يتم عزل موشيه كاتساف لاغتصابه واحدة من رعايا اليهود، ولا يتم عزل تلك الشلة التي اغتصبت امة العرب والاسلام..

* كاتب وباحث سياسي من ليبيا

الجيفة تستهوي الضباع

عبد الستار قاسم*

■ على ماذا يقتتل فلسطينيون من حركتي فتح وحماس؟ انهم يقتتلون على جيفة منتنة يلهث المرء راكضا مسافات بعيدا عن رائحتها المقرفة. بقرفهم الدموي هذا، يجرون الشعب الفلسطيني الى خزي تاريخي وعار انساني، وذلة في الدنيا والآخرة. تراهم يحتلون الشوارع ويقيمون الحواجز ويقتلون الابرياء، وكان احدهم قد انهمك في وليمة شيطانية يعجز ابليس عن تحضيرها.

لقد ضلوا كثيرا وابتعدوا متعمدين او جاهلين حتى غرقت نفوسهم بالاحقاد وباوحال الكراهية والبغضاء. لقد عميت ابصارهم وصمت آذانهم ظانين ان لا حكمة الا في رؤوسهم الجوفاء، ولا وطنية الا في جعب الخيانة والاستسلام. قيادات منحطة لا يهمها سوى مصالحها ومصالح امريكا واسرائيل تزج بابناء فلسطين في هاوية سحيقة من الظلمات والجهالة، وتدفعهم في اتون فيه من سعير جهنم ما تشيب منه الصبيان. داسوا على دماء شهدائنا، وعلى دموع نسائنا الثكلى، وآهات اليتامى، وعلى آلام المعتقلين وانات الجرحى والقلوب الدامية الدامعة. دنسوا ثرى الارض الطهور، استهتروا بالمقدسات، وتحت اقدامهم النجسة تنطق حبات التراب والرمال تلفظهم، تصرخ الى خالقها مستنجدة لاستعادة عبقها المرصع بالورود والرياحين.

انهم الى مكة ذاهبون، واخالها هاربة من وجوههم تأبى ان يصيبها بلل. ربما يظنون ان المكان المقدس سيهديهم الى صراط مستقيم، لكن لا يستقيم من تأبى نفسه الا الاعوجاج. (لو) ظهر رسول الله عليه افضل الصلوات وأتم التسليم الآن ليرشدهم لفروا من مجلسه باحثين عن شياطينهم التي تعدهم بمتع بخسة تعسة.

يبحثون الآن عن حلول بعدما ورطوا شعب فلسطين بخياناتهم ورعونتهم ومنزلقاتهم وضيق آفاقهم، ومساعيهم الحثيثة نحو متع نجسة يفرشها لهم الصهاينة واولياؤهم الامريكيون. وأي حل هذا الذي سيسود والفتنة قد وقعت وحصدت من النفوس ما حصدت، واسالت الدماء ساخنة مدرارة في شوارع كان يجب ان تكون عنوانا لعزة اهل فلسطين؟

في وقت الفتنة، لا توجد حلول سوى ان يحمل كل شريك فتنوي امتعته ويرحل. قيادات فلسطين الحالية يجب ان تخلي السبيل وتغرب عن وجوه الفلسطينيين والعرب والمسلمين. هذه قيادات تحرض على الفتنة، وتمول الاقتتال، ومنها من يتسلم اسلحته من اسرائيل واموالها من امريكا. هذه القيادات التي تقف على التلفاز لتظهر بمظهر الأب الحنون المعطاء الذي يؤرقه آلام الاطفال والنساء هي احد عوامل الفتنة، وهي تحمل المسؤولية الاكبر، وموقعها يجب ان يكون في المعتقل في انتظار المحكمة.

يبحث اناس كثر الآن عن حلول لما يجري في فلسطين، لكنهم يتناسون ان الحلول يتم طرحها على الساحة الفلسطينية منذ حوالي عشرين عاما لتدارك الفتن والانهيارات السياسية والاجتماعية والاخلاقية. لم يكن احد يريد ان يسمع او يبصر. قد تم طرح حلول كثيرة على حماس، وفي كل مرة كان ياتي صوت يقول بان هذه حلول مثالية ولا يمكن تطبيقها. وكان دائما يقال لهم: انتظروا الحلول «الملغوصة» حتى يكون بالامكان تطبيقها. ها هي اتتكم.

دأبت القيادة الفلسطينية التقليدية على مدى عشرات السنوات على تفتيت النسيجين الاجتماعي والاخلاقي للشعب الفلسطيني، وكنا نرى هذا ونلمسه كل يوم، ولا جديد فيما نراه من فتن ومهالك صادرة عنها. اما حماس، فقد انتخبها الناس ليس طمعا في تحرير فلسطين وانما طمعا في اصلاح الاوضاع الداخلية. صحيح ان الحصار عليها شديد من الداخل والخارج، ومن الاصدقاء والاعداء، ومن الفلسطينيين وغير الفلسطينيين، لكنها للاسف ادارت ظهرها لكل الناس وظنت انها هي وحدها صاحبة العقل الرزين والتقدير القويم والتجربة العميقة والفكر الثاقب. قررت الذهاب وحيدة تجري وراء شراكة سياسية لا يمكن ان تتم الا على حساب مواثيقها وبرنامجها الانتخابي.

وقعت الفاس بالراس، وحصد الشعب الفلسطيني ثمار ما زرع. اين المفر الآن؟ نحن الآن بحاجة الى قيادة ادارية تشرف على الشؤون اليومية للشعب الفلسطيني، وتعمل على تأهيله اجتماعيا وثقافيا وسياسيا وفكريا بحيث يصبح اهلا لحمل القضية الفلسطينية. اما الفصائل المقاومة فعليها اعادة ترتيب اوضاعها وتشكيل غرفة مقاومة مشتركة تعمل على حراسة الامن الوطني الفلسطيني، تاركة الامن المدني للمدنيين.

قادتنا الفصائل القائمة حاليا من تنازل الى تنازل الى ان اوصلتنا الى اتفاق اوسلو، فالتنسيق الامني مع اسرائيل، فوضع لقمة خبز الشعب الفلسطيني بيد اعدائه، فالاقتتال. فمن اراد منها ان يكون وفيا لتاريخ تظن القيادات انه مشرف فعليه ان يعود الى حيث انطلق.

* كاتب من فلسطين

منهل السراج*

25 عاما على احداث حماة: من يتذكر؟

■ ليس ثمة ما يكتب بعد مرور 25 سنة. ذلك لانه ربما لم يعد يوجد ذكرى نحييها، وليس هناك من يشهد بحب وشجاعة، ليس لان اهل حماة خائفون فقط، بل لان احداث شباط (فبراير) 1982 صارت مثل اسمائهم يحملونها مجبرين او مختارين، ملاصقة لهم، تتدخل بصنع اقدارهم وحاضرهم البائس ومستقبلهم الغامض، لكن من يفكر باسمه او يتذكره!

كثيرون مسحوا رؤوسهم، نظفوها او عصروها او افرغوها، وارتاحوا. من حقهم ان يرتاحوا. ولكن لماذا نجح الانسان الحموي بهذا التمرين الصعب: نسيان الاحداث، ولم يجرب ان يتخلص من سلبيات قاتلة يمارسها كل يوم؟

مر الآن خمسة وعشرون عاماً. ماذا يفعل اليوم في الشوارع والحارات؟.

اكاد ارى كافيتيريا افاميا الشام غاصة بالناس، ياكلون الفتة والتبولة والبيتزا، ويدخنون الاركيلة، ويراقبون ثياب بعضهم، سيارات بعضهم، حلي بعضهم، النساء والرجال على السواء، وأرى وجه العاصي مرتجفا وعلى وشك البكاء، وواجهة الجامع العتيق بمئذنته الحديثة التي عوضوها بعد الاحداث مثل التعويضات التي منحت للناس ثمن دمائهم واعمارهم.

واذا مشيت من الحاضر الى السوق/ ضفتي العاصي، فعلي ان اشد قميصي لتبقى مؤخرة بنطالي مغطاة. وحركتي مستورة قدر الامكان. ما زال هذا الامر مطلوباً واساسياً. وما زال في رؤوسهم، بل ربما هو الوحيد الذي تبقى في رؤوسهم، الرغبة بستر النساء. اما حالهم..

هل ابالغ اذا قلت ان تسعين بالمئة من اهل مدينة حماة لهم اقارب او اهلهم او كلهم في الخارج، استطيع ان اجزم ان معظمهم في الخارج، وان كانوا يعيشون في الداخل، يعني في مدينة حماة نفسها، ذلك بسبب العزلة التي طبقت عليهم ومن ثم ادمنوها، صنعوا لانفسهم دنيا غير الدنيا السائدة وتوازنوا معها. ربما هذا يحتاج الى تدقيق وبحث ميداني، لطالما حاولت اجراءه، لكن الرعب الذي عاشه اهل المدينة خصوصاً من احتاج شهادتهم يرتابون باي فكرة جديدة كانت او قديمة، مبتكرة او بائدة، صاروا يتوازنون عبر تفاصيل يومية، الفقير في التقاط لقمته والغني في استعراضاته المتنوعة، تبرعات، حفلات خيرية، مشاريع فاقعة.. الخ. اما الوسط وهذه نسبة ليست قليلة ولانها الاكبر، اقصد الوسط الذي يحصل على اللقمة بالحد الادنى، فهو ملته بحسراته. ذلك لان التهميش يلسعه كل صباح، من تهميشه في عمله الذي غالباً ما يؤخذ مكانه ليعطى لابن القرى المحيطة، الى تهميشه من قبل جاره الاكثر امكانية منه في الذهاب الى مطعم او في سفرة صيفية. وهناك الفئة القليلة التي صفقت للسلطة فنالت اعلى المناصب، في مديرية المالية والبنوك، اما بقية قطاعات الدولة فغالباً مدراؤها ورؤساء اقسامها من الريف المحيط. ابن الريف الذي غالباً لديه قطعة ارض اخذها ابوه او جده يوماً في حركات التأميم الاقتصادي من الاقطاعي الشرير في ذلك الوقت، ما زال على نهجه السابق في النق، يقوم بدور الضحية باتقان، صار كالمنشار يقص وهو رايح الى وظيفته في حماة صباحاً، ويقص وهو عائد من ارضه مساء. ويستحسن لو حصل على وظيفة في مؤسسات تنفعه في مصلحته/ الزراعة، البنك الزراعي، مؤسسة الحبوب وتوابعها، مؤسسة الابقار، الاعلاف.. طبعاً ليس معنى هذا انه يعيش ضمن الحدود الانسانية، لا.. قليل من السوريين يعيشون ضمن حدود الانسانية، وربما من يعيش ضمن هذه الحدود، يفعل هذا بالتفافه على انسانيته..

ابن حماة اضطهد عشرات المرات من قبل الدولة اولا، ومن قبل الريفي ثانياً، ذلك لانه متهم بالفوقية، وهي في الحقيقة ليست تهمة لان كثيرين ما زالوا معبئين حتى الثمالة برفض الريفي. بظنهم انه اقل مكانة منهم. يطلق بعض اهل حماة على موظفي الدوائر غير الحموية، «برّاويين». يقولون: في الصباح حماة لا تطاق، مملوءة بالبرّاويين.

المشكلة في بؤس الانسان الحموي ومكابرته امام واقعه، ولا يوجد من هو مكترث بشأنه، او ان اصحاب القرار باركوا له عنجهيته، وتركوه ينعم بأوهامه ما دام صامتاً متنازلاً.

نعم، هذا حال ابن حماة.

ربما تعرفون ما حدث قبل 25، ولكن دعونا نستذكر القليل القليل.

في جمعة من شباط (فبراير) 82، قرعوا ابواباً كثيرة، اخذوا معهم رجال البيت وعجائزه وكثيراً من الاطفال! امروهم ان يصطفوا على جدار البيت الخارجي، ثم حملّوهم في تلك السيارات التي يسمونها: صندوق.

عادوا واقتادوا غيرهم. وظلت سيارات الصندوق تذهب بالاحياء وتعود فارغة منهم حتى فرّغوا المدينة بزعمهم من الارهاب.

منذ ذلك اليوم صار للمدينة وسواس اسمه الجمعة. تستطيع ان تعرف يوم الجمعة في حماة من بين مئة يوم، لو كان عدد ايام الاسبوع مئة. تعرفه قبل ان يأتي وبعد ان يمضي..

هدموا معظم المدينة القديمة، كان اهل المدينة بثيابهم المنزلية منكمشين من الخوف والبرد والجوع، من حاول ان يدافع عن نفسه حمل سكيناً واخطرهم كان حاملاً «بارودة». قبروهم هم وبيوتهم، وجاء اكبر متعهد سوري وضرب على صدره واعداً انه سيعمر مكان البيوت والناس فندقاً حديثاً، خمس نجوم، لماعاً براقاً شاهقاً. هذا هو الفندق الذي اعتاد الناس ان يقضوا مساءاتهم في مطعمه، غافلين تماماً عما تطأه اقدامهم.. بعد الاحداث مباشرة، صارت الصبايا يتذمرن من الامهات لان الزيارات تحولت لاستذكار دائم لشباط (فبراير) 1982، فلان قتل، فلان غاب، فلانة ترملت وفلانة فقدت اولادها كلهم، ضاع الرزق، احترق البيت.. الخ. واتفق الاغلبية على حفل النسيان، كي يستمروا.

لم تُسمع بعد ذلك طلقة رصاص واحدة، الا عندما قطع احدهم خنصر اصبعه اليسرى، وافرغ مسدساً قديماً في راس ابنته التي كانت مستلقية في المشفى بين الحياة والموت، بعد ان ضبطوها في سيارة مع شاب، تدهورا معاً على الطريق الغربي. لقي الشاب حتفه، بينما ظل في البنت رمق من الحياة. ولكي يبرهن ابوها على نخوته وشرفه المستعاد، قطع اصغر اصابع يده اليسرى وقتل ابنته، ثم طلّق الأم وطردها من بيته واضعاً بقية فتياته تحت الاقامة الجبرية مع الجدة والعمات.

وبعد كل تلك السنين من الوجوم والصمت حدث امر آخر في 7/23 الساعة السابعة مساء سنة 2005، حين كنت اتفقد حماة يوم الجمعة، عادتي التي امارسها منذ 82. رايت عناصر من الشرطة فوق الرافعات، وفوق سيارات الاطفاء الحمراء الضخمة. شاحنات تسد الطرقات، واموراً من الناس المتكاثفين والمتدافعين بالعشرات، احجاراً كثيرة متناثرة على اسفلت الشارع.

اسرعت غير آبهة بالتحذيرات الكثيرة التي تنبهني ان اتراجع، ظننت ان انتفاضة حصلت، وكنت احضر هتافاتي: من اجل من غابوا، ومن ما زالوا في السجون، ومن فُقِدوا ولا احد يعرف عنهم خبراً، ومن اجل من قُتِلوا من دون حق، ومن اجل البيوت الجميلة التي هُدمتَ ومن اجل..

حين اقتربت من ساحة العراك، انحنيت على اسفلت الطريق، اتبين حجم الدماء التي سالت، فوجئت انها لم تكن اكثر من رايات ورقية حمراء، استُخدمتْ لمناصرة الفريق الذي ارتدى الاحمر. وخراطيم الماء والرافعات وكل هذه المعدات وعشرات رجال الشرطة والامن والابواق التي تولول، كانت لتفريق انصار الفريقين الرياضيين اللذين تباريا في هذا المساء.

ربما كان علي ان اطلع على نتيجة المباراة او على الاقل اسمي الفريقين المتباريين او نوع الرياضة التي استثارت كل هذا العنف. او كان علي ان اسأل، ان كان حكم المباراة، قد تجنى وظلم، حتى اندفع انصار المظلوم بهذه الهستيريا، ليستردوا حق الفريق الخاسر. لكني لم افعل. كانت تلك الجمعة هي آخر جمعة اخرج فيها لأتفقد حماة.

صادف هذا العام 2007 ان ذكرى شرارة الاحداث 2 شباط (فبراير) هو يوم جمعة، اترى يوجد من يتأمل في النواعير، ويتذكر ولو بدمعة.. حماة؟

* كاتبة من سورية

صالح دياب*

الخادمات المغربيات غير البالغات في فرنسا: تفاصيل عن عبودية بشعة

■ لا تزال العبودية تمارس في عدد غير قليل من البلدان، وباشكال متعددة في دول الخليج العربي ولبنان والسودان، وموريتانيا، ساحل العاج، والكاميرون، طالما قرأنا عنها، احيانا، في الصحف الغربية ولمحت اليها بعض الصحف العربية. ففي لبنان ـ وحده ـ يقدر عدد المستخدمات غير البالغات، حسب لجنة مكافحة الرق الحديث 15000، اغلبهن من سريلانكا. ونظرا للعدد الكبير من الخدم السريلنكيين اصبحت كلمة سريلنكي تعني كل خادمة او خادم من اصل اجنبي، كما تكثر المؤسسات والمكاتب العلنية التي تعمل على استيراد العبيد الصغار بالتعاون مع شرطة البلاد التي تغض النظر.

وتستقدم هذه المؤسسات السيريلنكيات غير البالغات كالقطعان، وتسحب جوازات سفرهن منهن فور وصولهن الى البلاد. ففي لبنان يمكننا ان نشتري خادمة صغيرة، بكل ما تعنيه كلمة الشراء من كتابة عقد وتوقيع على اوراق قانونية وغيره.

ان بلدا اوروبيا مثل فرنسا هو الآخر ما زالت تمارس فيه العبودية باشكال مختلفة لعل اهمها العبودية المنزلية التي تقع غالبا على الفتيات غير البالغات اللواتي تتراوح اعمارهن بين 10 و12 عاما، اللواتي ينتمين في شكل عام الى البلدان العربية المغاربية، ومدغشقر، وجزر القمر، وبلدان افريقية اخرى. بينما تشكل الخادمات الصغيرات المنتميات الى دولة المغرب النسبة الاكبر بينهن. ويبدو من الصعب العثور على ارقام حقيقية عن عددهن. وهذا ما تناوله برونو اولمير ذو الاصل المغربي وفلوران ماناغو في فيلمهما التسجيلي الذي صدر تحت عنوان «خادمات صغيرات»، وقام بنقله الى العربية محمد العمراوي.

والحال، ان الفتيات الصغيرات اللواتي يرزحن تحت نير العبودية المنزلية يجئن الى فرنسا على الاغلب برضا العائلة ومن دون ارادتهن، عبر سماسرة مختصين ينشطون علنا في القرى والاحياء الفقيرة المغربية، او مع احد الاقارب او الفرنسيين، بهدف متابعة الدراسة، والبحث عن فرصة حياة افضل، ومساعدة الاهل ماديا.

غالبا ما يعد الشخص الذي يصحب معه فتاة صغيرة ـ كاذبا على اهلها ـ سمسارا كان ام سائحا ام قريبا، بألا يقلقوا ويخافوا عليها. فهو سيتكفل بعنايتها، والسهر عليها، ويرسلها الى المدرسة معتبرا انه سيعاملها كما لو كانت احد ابنائه. وبانها ستعود بعد سنوات الى بيتها. لكن عمليا لا ينفذ اي شيء من هذه الوعود. خصوصا وانه من الصعب جدا الحصول على خادمة من فرنسا. وتنفي المنظمات المناهضة للعبودية مثل «العبودية صفر مسامحة» علمها باي حالة عبودية منزلية تم فيها ارسال اي فتاة صغيرة الى المدرسة بعد قدومها الى فرنسا.

فعلى العكس تماما كان دائما يتم في الحالات المختلفة سحب اوراقها الادارية، ومنعها من التواصل بالتلفون في شكل حر مع اهلها. فهي دائما تقوم بالاتصال برفقة احد افراد عائلة مستخدميها، ما يمنعها من الكلام بحرية. الفتيات الخادمات يرددن قائلات لأهلهن (لا باس لا باس). فيما واقعيا، يبقين سجينات المنزل. وبمعنى اكثر دقة سجينات العائلة التي يعملن عندها.

كل الاحلام التي يبنيها الاهل على وجود بناتهم في الخارج تتبخر سنة بعد اخرى. فالفتيات الصغيرات يتحولن الى خادمات يشتغلن 18 ساعة يوميا واكثر. اذ يقمن في بيوت مستخدميهن، في حالة حرمان تام من التعليم، ضمن ظروف في غاية القسوة، محرومات من الحرية ومن الحصول على اوراق الاقامة. فعلى الاغلب تستسلم الفتيات الى الامر الواقع، رغم انه لم يخطر في بالهن انهن سيتحولن الى خادمات. كما لا يجرؤن على البوح والكلام عما يجري لهن بسبب الخوف من المستخدم، واحساسهن بالذنب تجاه الاهل الذين ارسلوهن من اجل التعليم وكسب المال. قلة من الفتيات الصغيرات يجرؤن على تقديم شكوى ضد المستخدمين، فالاقدام